سلسلة الدراسات القبطية
-١٧-

تعاليم
القديس الأنبا دانيال القس

بدير شيهيت

١٩٦٤
يوسف حبيب

قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

القديس الأنبا دانيال هو بطل من أبطال المسيحية من مشاهير آباء القرن الرابع الميلادى صاحب التعاليم الرائعة والإرشادات النفيسة القليل منها منشور فى كتاب

Nicene and P. Nicene Fathers Vol XI Series 2.

ونظراً لأهمية هذه التعاليم وعمقها فى المسيحية وفلسفتها العظيمة (التى سجلها القديسان يوحنا كاسيان وجرمانوس - سنأتى سيرتهما)، قمنا بترجمتها إلى العربية، ورأينا تقسيمها وتبويبها هذا التبويب القريب المأخذ ليسهل على المطلع اقتناص شواردها والاستفادة منها أكبر فائدة ممكنة. هذا القديس لم يكن مساويا لأولئك الذين كانوا يسكنون الصحراء فحسب بل كان متحليا بكل نوع من أنواع الفضائل وكان ممتازاً بصفة خاصة فى فضيلة الاتضاع، وكان الأب الطوباوى بفنوتيوس معلمه مسروراً ومبتهجاً من صفات القديس الممتازة وعمل على ترقيته القسيسية نظراً لطهارته ووداعته مع أنه كان أصغر من الكثيرين سنا

لأنه لم ير أنه من الموافق بفاؤه فى رتبة أقل من رتبته ، وكان مشتاقا أيضا لأن يكون تلميذه خليفة له ، ومع ذلك لم يتخل الأنبا دانيال عن الضاعه المعهود ولما كان معلمه موجوداً كان يستمر فى وظيفتـــه كشماس يخدم حسب عادته الاولى (١) .

---

(١) سير الآباء تفيض بقصص وافرة عن الاتضاع واخفاء الفضائل فيذكر التاريخ عن البابا متاؤس الـ ٨٧ فى القرن الرابع عشر أنه لما رقى إلى درجة القسيسية وهو صغير هرب إلى دير القـــديس أنطونيوس حيث أنكر رتبته وكان يخدم كشماس ، وعن القديس بينوفيوس أنه كان قسا ورئيسا لدير قرب Panephsis بلدة من أعمال مصر هرب سراً من ديره إلى دير طبنيسى (محافظة قنا) وتزيا بزى علمانى وبعد الحاح بالنسبة لشيخوخته صار راهبا تحت الاختبار بذلك الدير وعين له أن يقوم بمساعدة أخ صغير يشتغل فى حديقة الدير وقد قام بكل ما كان يعهد به اليه بكل الضاع مقدس ولم يكتف بذلك لكنه كان يعمل بالليل بعض الاعمال الوضيعة التى كان يرفض القيام بها باقى الرهبان ويشمئزون منها ، وبعد أن قضى هـذا الأب ثلاث سنوات على هذه الحالة حدث أن أخا كان فى الدير الذى كان القديس بينوفيوس رئيسه زار هذا الدير فكشف أمره وإذ رأى =

وإنه وإن كان بفنوتيوس من أعاظم القديسين وقد أوتى نعمة النبوّ فى أمور كثيرة الا أنه فى هذه الحالة لم يتحقق أمله فى الاختيار الذى تم بواسطته فقد انتقل هو نفسه إلى الرب بعد انتقال من أعده ليكون خليفة له بفترة وجيزة .

وفضلا عن جهاد القديس الأنبا دانيال وفضائله الممتازة عرف عنه وفرة العلم وغزارة المادة والقدرة على التعليم والانارة والرعاية والمشورة الحسنة . وقد فسر الكثير من أقوال الكتاب المقدس ووضع تعاليم نافعة كثيرة ـ وهذا بلا شك يوضح لنا علو شأن رتبة قس البرية الذى كانت تقع عليه أعباء التعليم والارشاد، ويبين لنا كيف

= أنه كان موضع اكرام الآباء عول على الهروب فاقلع سراً إلى فلسطين حيث لجأ إلى أحد الأديرة كراهب مبتدىء فى الدير الذى كان يقيم فيه القديس يوحنا كاسيان وكان عليه الخدمة فى قلايته وبعد وقت كشف أمره ويخبرنا القديس كاسيان عن عظم قداسة هذا الأب واخفائه لفضائله وله تعاليم وتفاسير روحية عميقة .

يذكر التاريخ أيضا عن القديس ساويرس بطريرك أنطاكية أنه كان يصلى فى الأديرة فى زى راهب بسيط (راجع سيرته فى كتابنا « الأنبا دانيال القمص ») .

كانت الأديرة مراكز علمية ودينية يتخرج فيها فطاحل القديسين الممتازين وأقطاب العلوم الدينية - فقد تتلمذ القديس العظيم كيرلس الكبير في البرية بضع سنوات على يد القديس سيرابيون الحكيم بدير القديس مكاريوس.

ولقد أعجب الأجانب بالاديرة فزارها كثيرون من القديسين في القرون الأولى أمثال جون كاسيان وجرمانوس، ميلانيا الكبيرة روفينوس، جيروم، بولا Paula وبلاديوس.

وقد وصلت مؤلفات آبائنا الرهبان إلى حد الاعجاز، ساعدهم على ذلك عمل الروح القدس في قلوبهم واتصافهم بالله، وكان تخليهم عن الاهتمامات العالمية وهدوء الطبيعة وسكونها خير معين لهم على وفرة الانتاج وقد ازدانت مكتبات الخارج بالآلاف من المخطوطات النفيسة — وقد عثر أخيراً في خرائب دير الحمامولي بمنطقة الفيوم سنة ١٩١٠ على مجموعة مخطوطات نفيسة (مجموعة مرجان) ولا تزال صور هذه المجموعة موجودة في المتحف القبطي وتتكون من أكثر من خمسين مجلداً ضخما باللغة القبطية باللهجة الصعيدية تحوى سير

القديسين والشهداء، بعض أسفار العهد القديم، تفاسير للكتاب المقدس وعظات وتعاليم للآباء الرهبان، منها مجموعة نادرة لعظات وتفاسير الأنبا شنوده رئيس المتوحدين

يوسف حبيب

الفصل الأول

١ ـ القديس بفنوتيوس [1] القس

معلم القديس

فى مقدمة صفوف القديسين الذين أضاءوا البرية بنورهم كما تضيء النجوم ظلمة الليل الحالك كان القديس بفنوتيوس ـ نشأ فى أوائل القرن الرابع ويعرف ببفنوتيوس الناسك وكان تلميذاً للقديس أنطونيوس ثم ذهب إلى الصحراء حيث عاش متوحداً سنوات كثيرة ـ أخيراً توجه إلى الاسقيط وعاش فى مكان منعزل ، وكانت قلايته تبعد عن الكنيسة بمقدار خمسة أميال ، وبعد أن تنيح القديس مكاريوس الكبير (حوالى ٣٩٠ م) خلفه فى قيادة آباء البرية وصار أبا الاسقيط .

ورغم أنه عاش إلى سن متقدم جداً لم يغير قلايته التى كان

---

(١) بفنوتيوس بالقبطية بفنوق وبالصعيدية بينوده أى الخاص بالله .

يسكنها وهو صغير إلى قلاية أخرى أكثر قرباً ، كما أن تقدمه فى السن لم يمنعه من الذهاب إلى الكنيسة يومى السبت والأحد ـ وكان لا يعود فارغ اليدين بل كان يحمل جرة ماء على كتفيه الضعيفين تكفيه طوال الاسبوع ويسير بهذا الحمل الثقيل مسافة طويلة ، ولما بلغ من العمر أكثر من التسعين عاماً لم يغير نظام معيشته حتى وهو رئيس للرهبان لم يكلف تلاميذه بأية خدمة ولم يدع أحداً من الصغار يجلب الماء اليه بل كان هو نفسه يقوم بهذا العمل (١).

ومنذ نعومة أظفاره القى بنفسه فى الحياة النسكية ومارس الاتضاع والطاعة وسائر الفضائل فأمات هوى النفس ، وحاز كل فضيلة ومعرفة وصار مصباح القداسة والعلم فى البرية .

ولأنه كان ملتهباً بالاشواق الإلهية فقد توغل فى أعماق الصحراء الداخلية حتى لا يعيقه أحد عن التأمل والمناجاة والاتصال بالله ،

---

(١) روى التاريخ أيضاً عن الرئيس القديس كرونيوس أنه فى شيخوخته كان يملأ الجرة ويطوف بها على الرهبان ليسقيهم ـ وعن الرئيس ثيؤذوروس أنه كان يعد المائدة لتلاميذه بنفسه .

وفى سياحته كان يبحث عن الآباء المتوحدين الذين كانوا يعيشون فى الأطراف البعيدة فى البرية غير المعروفين للناس على الاطلاق. وكان من أثر ذلك أنه وجد القديس (أبو نفـــر السائح) وكتب سيرته، وفى أثناء تجواله وجد أولا إحدى المغارات كان بها أحـــد الرهبان متنيحا، ثم قابل الأب تيموثاوس وهذا أخبره عن قصته وكيف أنه كان راهبا بطيبه وترك مكانه وصار متوحداً فى الصحارى

ولم يكن هذا القديس رائدا فى الروحيات فحسب بل كان ممتلئا من كل معرفة وحكمة وقد ترك تعاليم فلسفية كثيرة ذكرها القديس يوحنا كاسيان فى أثناء مقابلاته له عندما كان أبا للاسقيط طاعنا فى السن - هذه التعاليم التى تفوق تعاليم الكثير من المتقدمين بمقدار ما يفوق المعلم التلميذ.

وتعيد له الكنيسة القبطية فى ١٥ أمشير وتذكر سيرته المكتوبة فى السنكسار مختصرة بركة صلاته تكون معنا.

٢ - القديس يوحنا كاسيان

القديس يوحنا كاسيان يرجح أن يكون من فرنسا وســـلالته وأقاربه من مرسيليا، ولد حـــوالى سنة ٣٦٠م ولا يعلم شيئا عن

عائلته سوى أنه كانت له أخت وأن عائلته كانت على جانب من الثراء وقد تثقف ثقافة ممتازة عالية.

ولما كان شابا قصد مع صديق له يدعى جرمانوس إلى بيت لحم حيث قضى بضع سنوات تدرب فيها على الحياة النسكية، وإذ كان صيت النســاك المصريين ذائعا اشتاق هو وصديقه أن يزورا مصر منبع الرهبنة وأصلها الثابت حيث يوجد عظماء الرهبان والمتوحدين فانطلقا إلى مصر حوالى سنة ٣٩٠ م رجاء أن يعودا إلى بيت لحم فى فرصة قريبة بعد الانتهاء من زيارتهما، ومرا فى طريقهما بجهـــة قريبة من المنزلة وأرشدهما أسقف هذه المنطقة إلى ثلاثة من أبطال الرهبنة وهم الآباء شيرمان وأسطور ويوسف - وكانوا معروفين بأنهم متوحدون ممتازون. زارا أولا قلاية الأول ثم الثانى وانتقلا بعدئذ إلى قلاية الأخير الذى كان مثقفا ثقافة عالية جدا ومتمكنا فى اللغة اليونانية فتحدث اليهما دون حاجة إلى مترجم بأحاديث روحية عميقة وكان مقرراً أن يعود القـــديس يوحنا كاسيان إلى بيت لحم لكن فرط اعجابه بالأب يوسف اضطره إلى الاقامة بالبرية ســـبع سنوات بعد أن اتخذ الأب يوسف مستشاراً روحيا له، وقد زار فى

شيبيت كثير من الآباء القديسين للاستفادة من طريقة حياتهم النسكية وليلتقط من أفواههم المقدسة تعاليمهم وتفاسيرهم التي سجل الكثير منها . زار القديس بيامون ، بينوفيوس ، يوحنا ، ثيوناس ، ابرام ، بفنوتيوس والأنبا دانيال الذي سنفتشر تعاليمه ، وبعد أن تشبعا بالتعاليم المقدسة قفلا راجعين إلى بيت لحم ثم عادا إلى برية شيهيت حوالى سنة ٣٩٩ م وذهب كاسيان بعد ذلك إلى القسطنطينية حيث رسمه القديس يوحنا ذهبي الفم شماسا ومضى إلى رومه ورسم قسا هناك ثم مضى إلى مرسيليا واقام هناك وأسس ديراً للرهبان وآخر للراهبات وقد ألف مجلدين باللاتينية عن آباء البرية مما كان له أكبر الأثر في الحياة الديرية ، ويعتبر القديس يوحنا كاسيان مؤسس الرهبنة في فرنسا وتنيح سنة ٤٣٥ م .

٣ - القديس جرمانوس

كان صديقا روحيا للقديس يوحنا كاسيان لازمه في كل أسفاره كان زميلا له في دير بيت لحم وفي مناطق الرهبان بمصر رسم قسا في القسطنطينية بينما كان القديس يوحنا لايزال شماسا . ذهب أيضا

مع كاسيان إلى رومه وكانت له مناقشات روحية مع آباء البرية وهو بصحبة القديس يوحنا كاسيان - ولما زار مع الأخير الأب يوسف سأله عما اذا كان الاثنان اخوين ولما علم انهما مرتبطان فقط برباط الاخوة الروحية أخذ يحدثهما عن الصداقة حديثا مسهبا شيقا عميقا .

الفصل الثاني

مناقشه الجفاف الروحي

ناقش يوحنا كاسيان الانبا دانيال القس في مسألة الجفاف الروحي فسأله السؤال التالي :

« لماذا نكون حين جلوسنا في القلالي مملوئين في بعض الاحيان من تعزية القلب مع مشاعر البهجة والإحساسات الغزيرة المقدسة فننطلق في صلوات طاهرة ويمتلىء العقل من ثمار الروح مبتهلا لله حتى في النوم يحس أن طلباته ترتفع الى الله الحي .

ولماذا نكون في بعض الأحيان بدون سبب ما مملوئين من كل ضيق وحزن ونجد أنفسنا مثقلين تحت نير الكآبة حتى اننا لا نشعر

فقط اننا قد غلبنا بهذه المشاعر بل ان القلاية نفسها تكون مخيفة والقراءة لا نجد اليها سبيلا حتى صلواتنا تكون بلا انتباه وفي طياشة ونكون كالمترنحين من الخمر ، وإذ نحاول الرجوع الى حالتنا الأولى نجد أنفسنا غير قادرين أن نفعل شيئا وإذ نريد أن نركز انتباهنا الى الله نجد أنفسنا محولين بعيداً وأفكارنا تتجول وتطيش ولهذا نحرم كلية من كل ثمار الروح ، حتى أنه لا يعود في إمكاننا ان نفيق من هذا السبات مع أشواق ملكوت السموات أو خوف جهنم النار .

الفصل الثالث

إجابة القديس الأنبا دانيال القس

قد أجاب الأنبا دانيال إجابة نافعة فيها فصل الخطاب قال :

توجد ثلاثة أسباب لهذا الجفاف الذي تتكلم عنه قد أوضحها الآباء الأقدمون ، لأن هذه الحالة السابقة تأتي إما من الأهمال من جانبنا أو من هجمات العدو أو بسماح من الله . من الإهمال من حياتنا حينما نخطىء نفتر ونتصرف بتوان ، ولأن الكسل يغتذي بالأفكار الشريرة

فلا تنبت أرض قلوبنا إلا الشوك والحسك ، وتبعا لذلك نكون مجدبين وليست فينا قوة للثمر الروحي .

اما بالنسبة لهجمات إبليس فتكون حينما تكون لنا بالفعل رغبات جيدة لكن ابليس بمكره وخداعه يتخذ طريقه الى قلوبنا وبدون إدراك منا وضد رغبتنا نجد أنفسنا مسوقين بعيدا عن تلك الرغبات الجيدة . وسيأتي ذكر السبب الثالث في الفصل الرابع تفصيلا .

الفصل الرابع

في سماح الله بالتجارب

اما بالنسبة لسماح الله بوقوع التجارب علينا فإن لذلك سببين ، أولهما ان السيد يسمح بأن يتركنا لمدة قصيرة حتى لا تنتفخ قلوبنا إذ نحس بكل تواضع بضعفنا ونتوق الى نقاوة وطهارة قلوبنا الأولى ، وعندما يتركنا الله ولا نستطيع ان نستعيد حالتنا السابقة من الطهارة والسرور عن طريق تأوهاتنا وجهودنا الذاتية نعلم حينذاك ان تعزيات قلوبنا الأولى انما كانت بسبب عطية الله فقط وليست بسبب اجتهادنا .

وثمة سبب آخر لذلك وهو لكي يختبر مثابرتنا ومواظبتنا ورغباتنا الحقيقية وليرى فينا بأي ثبات قلب وجدية في الصلاة تطلب عودة الروح القدس لنا بعد تخلي معونته - ايضا اذا ما عرفنا مقدار الجهود التي ينبغي أن تطلب بها الفرح الروحي حينما نفقده نتعلم أن نحافظ على هذه الحالة عندما نكون فيها بكل يقظة وانتباه ونتمسك بها بكل ما فينا من قوة لأن عادة الناس أن يهملوا في المحافظة على الاشياء التي يرون أنه من الممكن تعويضها بسهولة .

الفصل الخامس

كل محاولاتنا وجهودنا لافائدة منها بدون معونة الله

بهذا يكون واضحا ان نعمة الله ورحمته هي التي تعمل فينا ما هو نافع وأنه حينما تتخلى عنا فكل جهودنا تكون بلا نفع ، وأنه مهما جاهد الانسان بقوة فإنه لن يستطع ان يسترد حالته الأولى بدون معونة الله كقول الكتاب « ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذي يرحم » (رومية ٩ : ١٦) .

ومن ناحية أخرى فإن هذه النعمة أحيانا لا يمتنع حلولها علينا بكل الاحساسات المقدسة السابق الكلام عنها وبقراءة الأفكار المقدسة الروحية حتى على المهملين وغير المكترثين وغير المستحقين فتنهض النائمين وتحكم الجهلاء وتوبخنا برفق وتطهر نفوسنا وتنير قلوبنا وحينذاك تنخس ضمائرنا التي أيقظتها نعمة الله . أخيرا في بعض الاحيان تفتقدنا لجأة نعمة الله فتمتلىء قلوبنا من عبيرها الحلو الذي هو فوق طبيعتنا حتى أن النفس تختطف وتبهر بهذه الافراح وتنسى أنها لا تزال في الجسد .

الفصل السادس

كيف أنه لمنفعتنا تتخلى عنا

نعمة الله وقتا ما

ان داود النبي يوضح كيف أن تخلي نعمة الله عنا في بعض الأوقات تكون لمنفعتنا . فقد كان يسأل أن يكون التخلي عنه بقدر وبدرجة فكان يقول لا تتركني بالكلية ، كأنه يريد أن يقول في

كلمات أخرى أنا أعلم أنك تترك قديسيك بعض الأوقات لمنفعتهم لكى تمحصهم وتجربهم ، لأنه لا سبيل إلى أن يجربهم الشيطان ما لم تتركهم بعض الوقت ، ولهذا أنا أسألك ألا تتركنى بالكلية لأنه خير لى أن أعرف ضعفى فأقول أنه خير لى أنك اذللتنى مز ٧١ ، وليس من الخير الا تبقى لى أية فرصة للقتال وهذه الفرصة ان تتاح لى إذا كانت حماية الله تكتنفنى دائما بلا انقطاع ، لأن الشيطان لا يستطيع ان يهاجمنى ما دمت فى حماك ، وكما يعترض الشيطان ويجادل كما فعل مع أيوب إذ يقول :

« هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية » (أيوب ١ : ٩ و١٠) - لكنى بالحرى أسأل الا تتركنى بالكلية لأنه أولا نافع لى أنك تتركنى قليلا حتى تختبر محبتى لك لأنى أكون فى خطر إذا تركتنى كثيراً بسبب خطاياى لأنه ما من انسان يستطيع أن يحتمل التخلى عن معونتك مدة طويلة ، لأنك تعرف مقدار قوة الانسان وقوة احتماله فلا تدعنا نجرب فوق ما نحتمل لكنك تجعل مع التجربة المنفذ .

وان شيئا من هذا القبيل نقرأ عنه فى سفر القضاة فى موضوع إبادة الأمم الذين كانوا ضد اسرائيل فيقول : « فهؤلاء هم الأمم الذين تركهم الرب ليعلم بهم اسرائيل ليتعلموا الحرب مع أعدائهم . » وبعد ذلك يقول : « الرب ترك الأمم لكى يجربوا بنى اسرائيل . » فكانوا لامتحان اسرائيل بهم لكى يعلم هل يسمعون وصايا الله التى أوصى بها آباءهم عن يد موسى (قضاة ٣ : ١ - ٤)

وهذا الأمر الذى فعله ليس لانه لا يريد السلام لهم أو رغبة فى الاضرار بهم لكن لانه رأى أن ذلك نافع لهم فما داموا مهددين بهجوم الامم فإنهم سيشعرون على الدوام بحاجتهم للمعونة الالهية ، ولهذا السبب لا يفترون عن الصراخ اليه وطلب معونته ولا يفتنابهم الاهمال بسبب الاسترخاء والراحة فيفقدون عادة المقاومة والجهاد وممارسة الفضائل ، لانه حدث مراراً وتكراراً أن بعض الناس الذين لم تستطع الشدائد أن تسقطهم قد سقطوا عن طريق الفراغ من الهموم وعن طريق الحياة الناعمة .

الفصل السابع

الصراع الذى يشير اليه الرسول

أنه القتـــال بين الجسد والروح

إن هذا القتال الذي نقرأ عنه فى الرسائل لمصلحتنا أن يوضع فى أعضائنا ، لان الجسد يشتهى ضدالروح والروح ضدالجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون مالا تريدون (غل ٥ : ١٧) .

إنه يوجد هنا نضال وضع بترتيب من الله فى أجســـادنا لانه إذا كان هناك شيء موجود فى جميع الناس دون أى استثناء فكيف يمكن أن نفكر فى هذا الشيء الا أنه مختص بكيان الطبيعة الانسانية منذ سقوط أول انسان كما لو كان بطريقة طبيعية ـ وعندما يكون شيء ما موجوداً فى الناس جميعا بالطبيعة وينمو مع نموهم فبهذا يمكن أن نعتقد أنه انما وجد بإرادة الله لا لضرر الناس بل لمعاونتهم . . وهذا النضال والقتال وضعه الله بمقتضى أمره وترتيبه فكيف يمكن أن نعتقد أنه ضار بنا بطريقة ما ؟ إن هذا يحثنا أن نكون فى حالة

أكثر سموا فأنه إذا بطل هذا القتال فأننا نكون فى سلام محفوف بالمخاطر .

الفصل الثامن

إرادة الانسان

بعد أن تكلم الرسول عن القتال بين الجسد والروح وبين كيف يقاوم كل منهما الآخر أضاف شيئا ثالثا هو إرادة الانسان .

سأل القديس جرمانوس زميل كاسيان الأب دانيال قائلا: « ولو أن هذا الأمر يبدو واضحا لنا لكننا لأننا لانستطيع أن نعى مايرى اليه الرسول نريد منك أن تفسر لنا فى أكثر وضوح ، لأن ثلاثة أمور واضحة هنا وهى :

(أولا) قتال الجسد ضد الروح .

(ثانياً) رغبة الروح ضد الجسد .

(ثالثاً) إرادتنا وحريتنا أنفسنا التى تبدو كأنها موضوعة بين الاثنين .

ولو انى أستطيع أن أجمع بعض اشارات مما أوضحته من تفسير الا أنه لما كانت هذه المقابلة تتيح لنا الفرصة فاننـــا نشتاق أن نسمع تفسيراً عن هذا بأكثر تفصيل .

الفصل التاسع

تفسير القديس للنضـال الروحى

أجاب القديس الأنبا دانيـــال :

« ان ذلك يتعلق بفهمنا كيف نميز بين ما ترمى اليه الأسئلة وأنه جزء من المعرفة أن نفهم كم نحن جهلاء . لذلك قيل إذا سأل الجاهل سؤالا فإنه يعـــد حكيما ، لأنه ولو ان من يسأل أسئلة انما يكون جاهلا بالجواب كما يجب أن يكون ، فإن من يسأل بحكمة وبتعقل يتعلم ما لم يكن يعرفه من قبل وهذا الأمر بعينه يعتبر له حكمة ، لأنه بحكمة يكتشف ما كان يجهل معرفته ، طبقا لذلك حسب تقسيمك للموضوع يبدو أنه فى هذه الناحية يذكر الرسول ٣ أمور شهوة الجسد ضد الروح والروح ضد الجسد والقتال المتبادل بين الواحد والآخر الذى يبدو أنه السبب فى قوله حتى لا تفعل ما ترغب فيه ، وهنـــا

يظهر أمر رابع قد تركته وهو حتى تفعل مالا ترغب فيه .

الآن يجب علينا أن نكتشف معانى هاتين الرغبتين شهوة الجسد وشهوة الروح وبعد ذلك نستطيع أن نناقش حربتنـــا وإرادتنا فى العمل وهى القائمة بين الشهوتين ، وبنفس الطريقة نستطيع أن نعرف أخيراً ما لا يتعلق بارادتنا وحريتنا .

الفصل العاشر

معنى كلمة جسد

ان كلمة جسد (لحم) لا تستخدم لتأدية معنى واحـــد فقط فاننا نجدها تستعمل فى الكتاب المقدس بمعان مختلفة ، بعض الأحيـــان يقصد بها الانسان كله - أى الانسان جسداً ونفسا . . مثل « الكلمة صار جسدا (١) ويبصر كل بشر خلاص الله (٢) .

وبعض الأحيان يقصد بها الخطاة والناس الشهوانيين مثل قوله

(١) يو ١ : ١٤ (٢) لو ٣ : ٦

(لا يبقى روحى فى هؤلاء الناس لأنهم بشر) - النص فى الكتاب المقدس ، فقال الرب لا يدين روحى فى الانسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر » (١).

وبعض الأحيان يقصد بها الخطايا نفسها كقوله : « أما انتم فلستم فى الجسد بل فى الروح .) (٢) وأيضا قوله أن لحما ودما لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد (٣)

وبعض الاحيان المقصود بها القرابة والصلة الجسدية كقوله : هوذا عظمك ولحمك نحن (٤) والرسول يقول(٥) : لعلى أغيرهم الذين هم لحمى وأخلص أناسا منهم) - نص الكتاب المقدس ، لعلى أغير انسباتى وأخلص أناسا منهم » .

من أجل ما تقدم ينبغى لنا ان نتحقق اى المعانى تحمله هذه الكلمة فى هذا الموضع ، انه واضح انه لا يمكن ان نحمل ما جاء ، الكلمة

---

(١) تك ٦ : ٣ (٢) رو ٨ : ٩
(٣) ١ كو ١٥ : ٥٠ (٤) ٢ صم ٥ : ١
(٥) رو ١١ : ١٤

صار جسداً ، ويبصر كل بشر خلاص الله ، ولا أيضا قوله « لا يبقى روحى فى هؤلاء الناس لأنهم بشر ، لأن كلمة جسد لا تستخدم هنا كما هى هناك حيث يقصد بها فقط الإنسان الخاطىء عندما يقول الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد ، ولا هو يتكلم عن أمور مادية لكن عن حقائق التى هى فى واحد وتقاتل نفس الإنسان إما فى نفس الوقت أو كل على حدة حسب تقلب الزمان .

الفصل الحادى عشر

شهوة الجسد

ما الذى يقصده الرسول من كلمة « جسد » وما هى شهوة الجسد ؟

فى هذه الجملة ينبغى أن نأخذ كلمة جسد بمعناها غير الانسان (كيانه المادى) بل الرغبة الشهوانية والارادة الشريرة - كما أن أيضا كلمة « روح » لا ينبغى أن تحمل أى شىء مادى لكن الصلاح وأشواق النفس الروحية ، هذا المعنى الذى سبق أن أوضحه الرسول سابقا حيث يقول لكنى أقول : « إنما اقول اسلكوا بالروح فلا

تكلموا شهوة الجسد لان الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون مالا تريدون (١) .

وبما أن شهوات الجسد وشهوات الروح توجد معا فى واحد وفى نفس الشخص عندئذ ينهض قتال داخلى يوميا فينا ، وشهوة الجسد تثور نحو الخطية بالنسبة للمسرات المرتبطة بالحياة السهلة .

ومن ناحية أخرى فان شهوة الروح هى على النقيض من هذا ترغب فقط أن تسمو نحو الأمور الروحية .

من أجل هذا يلزم للسلوك بموجبها أن لا نعطى الجسد حتى اللوازم الضرورية له مشتاقين أن نؤخذ بهذه الأمور حتى لا تكون لنا أى مشاركة نحو شهوات الجسد الجسد يسر ويشتهى اللهو والدنس أما الروح فلا تحتمل حتى الشهوات الطبيعية . الواحد يطلب كثرة النوم والشبع من الطعام ، الآخر يتغذى بالسهر والصوم أى أنه لا يكون راغبا حتى فى النوم والطعام اللذين هما ضرورتان من ضروريات الحياة ـ الواحد يريد أن يكون غنيا بأمور كثيرة والآخر

(١) غل ٥ : ١٦ و ١٧

يكتفى يوميا بقدر قليل من الطعام الضرورى ، الواحد يجرى وراء التنعم بالاستجمام والراحة وأن يكون محوطا بجماهير الناس المتملقين والآخر يفرح بالذل والمسكنة والوحدة فى الصحارى النائية ـ الواحد يشتهى تقدير ومديح الناس والآخر يفرح فى البلايا التى تصيبه والاضطهادات .

الفصل الثانى عشر

إرادة الانسان الحرة

ما هى إرادتنا وحريتنا التى تقف
بين شهوة الجسد وشهوة الروح ؟

بين هاتين الرغبتين إذن تقوم إرادة النفس الطليقة فى مركز متوسط يستحق اللوم بعض الشىء فلا هى تسر بمباهج ومسرات كثرة الخطايا والآثام ولا هى ترضى بأحزان الفضائل . تريد أن تمنع نفسها عن الشهوات الجسدية لكن بحيث أنها لا تتحمل الصبر والاتعاب للتغلب عليها وتريد أن تحتفظ بطهارة الجسد دون قمع وتهذيب الجسد . تريد أن تحوز طهارة القلب دون ممارسة الأسرار

وتحلق فى سماء الفضائل الروحية مع التمتع بشهوات الجسد . تريد أن تقتنى الصبر دون احتمال المقاومين ، وتمارس وداعة المسيح دون أن تفقد مجد العالم ، تريد أن تبلغ بساطة الايمان مع الاطلاع العالمية ، أن تخدم المسيح لكن ليس بدون مديح وتقرب من النـــاس ، أن تتمسك بالصدق والحق فى جد وتدقيق لكن بدون أن تلق أى تبعة على أحد وباختصار فى جملة واحدة نشتاق أن ننال أمجـــاد ونعم المستقبل لكن بحيث لا نفقد امجاد هذه الحياة الحاضرة .

هذه الارادة الحرة لا تؤدى بنا إلى طريق الكمال الحقيقى لكن تغرقنا فى حالة تعسة من الفتور وتجعلنا متشبهين بأولئك الذين وبخهم السيد فى سفر الرؤيا إذ قال (انا عارف اعمالك انك لست بارداً ولا حاراً ليتك كنت بارداً او حاراً . هكذا لأنك فاتر ولست بارداً ولا حاراً انا مزمع ان اتقيأك من فمى) (١) ، إلا إذا كان الجهاد والنضال الذى يقوم من الجانبين يزعج هذه الحالة من الفتور ويقضى عليها لأننا حينما نستسلم إلى هذه الارادة الحرة ثم نرغب ان نسير فى

(١) رؤيا ٣ : ١٥ — ١٦

اتجاه الفراخى فحينئذ تثور فينا رغبات الجســـد بشهواتها ونزواتها الخاطئة ولا تجعلنا نستمر فى حالة الطهارة التى نسر بها وتغرينا إلى الطريق المملوء بالاشواك . طريق اللهو . الذى يجب أن نخافه .

أيضا نقول إذا اشتغلنا بحرارة الروح فاننا نريد أن نخلع أعمال الجسد وبدون التفات إلى الضعف البشرى نحاول أن نرفع أنفسنا بجهود زائدة عن الحد نحو الفضائل لكن يأتى ضعف الجسد فيردنا ويعوقنا عن المغالاة الزائدة عن الحد فى الروحيات . التى هى ضارة لنا . وهكذا تكون النتيجة أن هاتين الرغبتين تكونان متناقضتين الواحدة مع الأخرى فى صراع من هذا النوع . إرادة النفس الحرة التى ترغب أن تسلم نفسها بالكلية إلى الشهوات الجسدية أو أن تلق نفسها إلى الجهاد الذى يتطلبه اكتساب الفضائل ، فانها تقوم كما لو كانت فى ميزان بينما هذا النزاع بين الاثنين يعوق الإرادة الحرة الخطرة والمغالاة والإسراف ، وتجعل نوعا من التعادل مع ميزان أجسادنا فتضع الحدود للجسد والروح بدقة كاملة . فلا تسمح للعقل المشتغل بحرارة الروح أن ينحرف إلى اليمين ولا الجسد أن ينحدر فى أشواك الخطية إلى اليسار .

وبينما هذا الصراع ينهض فينا يوما بعد يوم لمصلحتنا ، فاننا نساق إلى الوصول إلى المرحلة الرابعة التي لانحبها وهي أن تبلغ طهارة القلب لكن ليس بالسهولة والتراخي لكن بالمجهود الدائب وانسحاق الروح لكي نحافظ على طهارة أجسادنا بالاصوام الكثيرة ، الجوع ، العطش ، اليقظة - وعلى نقاوة قلبنا بالقراءة والسهر والصلاة الدائمة وحب الوحدة ونثبت في الصبر باحتمال البلايا ونخدم جاراتنا في وسط الاهانات المتزايدة ونتبع الصدق والحق إذا احتاج الامر وسط مكاره العالم ونمثل هذا الصراع في أجسادنا نكون في مأمن من التراخي والاهمال ونتحرك لرغبة الفضائل وعندئذ يكون لنا الاتزان السليم وتنصلح إرادتنا المتراخية بحرارة الروح - ومن ناحية أخرى فإن جمود جسدنا وبرودته ينصلحان بحرارة معتدلة ، فلا شهوة الروح تسوق العقل إلى الانطلاق المطلق ولا ضعف الجسد يسمح بالطموح غير المعقول نحو القداسة ، حتى لا تنهض في الحالة الأولى عوامل الخطية المنوعة فينا أو تثور فينا الخطية الأولى في الحالة الثانية فترفع رأسها وتصيبنا بجراح قاتلة وهي الكبرياء - لكن نتيجة هذا الصراع أن يحفظ التوازن بين الجسد والروح ويفتح أمامنا

طريقا مأمونا سالما للفضيلة يكون وسطا بين الاثنين نسلك فيه فيتعلم جندي المسيح كيف يمشي في الطريق الملكي ، فإنه بناء على الفتور الناشيء من هذا الصراع الذي تكلمنا عنه فإن العقل عندما يشتبك بشهوات الجسد يجد أمامه قوة تراجعه هي رغبة الروح التي لا ترضى بأية وسيلة بالخطايا الأرضية وكذلك إذا ارتفعت الروح إلى درجة أكثر مما يجب من الحرارة فانها تنجذب عن طريق ضعف الجسد إلى مستوى أكثر تعقلا . وهي إذا تتعدى حد الفتور الذي تقودنا اليه ارادتنا الحرة - بالقدر المناسب - تسير قدما في طريق الكمال ونسمع عن شيء من هذا القبيل من ترتيب الله في سفر التكوين عند بناء البرج إذ حدثت بلبلة في الألسن وضعت حداً للتجديف والمحاولات الشريرة التي قام بها الناس . ولو لا هذا كان يحدث اتفاق لمقاومة الله وفي غير صالح أولئك الذين بدأوا يهاجمون عظمته الإلهية لكن اختلاف اللغات أشاع الاضطراب بينهم وسبب لهم النجاة . بينما ان اتحادهم كان سيوردهم موارد التهلكة ، وعندما نشب النزاع بينهم بدأوا يشعرون بضعفهم البشري وما كانوا يشعرون بهذا الضعف لو أن الكبرياء دخلت إلى نفوسهم عن طريق مؤامراتهم الشريرة .

الفصل الثالث عشر

فى فائدة التسويف الذى ينتج عن النزاع بين الجسد والروح

عندما نفكر بعقولنا فى أمور شريرة يحدث تأجيل لمصلحتنا عن طريق النزاع بين الجسد والروح وبهذا نعود إلى الصواب أما بسبب شعور الندم الذى نحس به أو عن طريق خواطر صالحة تمر بنا عادة فى فترة التأجيل هذه ، وينتج التأجيل لنا الفرصة للتأمل .

أما أولئك الذين لا تقف فى طريقهم أى عقبة من عقبات الجسد فى سبيل تنفيذ نزوات إرادتهم الحسرة - وأعنى بهؤلاء الشياطين والأرواح الشريرة - فإنهم إذ سقطوا من مرتبتهم العليا الملائكية أصبحوا فى بلية وشر من بلية بنى الانسان نظراً لتوفر الفرصة على الدوام أمامهم لتنفيذ رغباتهم إذ لا توجد موانع تصدهم عن أداء أى أمر شرير يتصورونه لأنهم سريعوا التفكير وكيانهم على استعداد دائما للتنفيذ وأقصد أن السبل لذلك موجودة أمامهم وليست هناك عوامل نافعة او افكار معدلة تصلح من نياتهم السيئة .

الفصل الرابع عشر

فى فساد الأرواح الشريرة الذى لا علاج له

الروح غير المقيدة بجسد مادى ليس لها ما يبرر الفكرة الشريرة التى تنشأ فيها وليس هناك مجال لغفران خطيئتها لأنه لا توجد فيها حوافز جسدية تدفعها إلى الخطية مثل بنى الإنسان لكنها فقط مشتعلة بقوة الإرادة الملتوية ولهذا فإن خطيئتها تبقى بدون مغفرة وضعفها لا علاج له - لأنها إذ تسقط بدون فتنة المادة الأرضية لا يمكن أن تجد غفرانا أو مجالا للندم .

ومن هذا نفهم بوضوح ان هذا النزاع بين الجسد والروح الذى ينشأ فينا ليس فقط عديم الضرر لكنه فعلا نافع جداً لنا .

الفصل الخامس عشر

فى النفع من وجود شهوة الجسد ضد الروح فى بنى الإنسان

أولا — فيها تأنيب لكسلنا وإهمالنا وهى بمثابة للعلم المنشط

الذى لا يسمح لنا أبداً أن نحيد عن النظـــام الدقيق . وإذا تعدى اهمالنا حـــدود الاتزان الواجب الذى يلائمها فإنها تثير فينا حافز الرغبة وتوبخنا وتعيدنا إلى حالة الاعتدال المناسبة .

ثانيا — فيما يختص بموضوع العفـــة والنقاوة الكاملة عندما نرى بنعمة الله أننا قد ابتعدنا عن خطايا الجسد فترة من الزمن نتوهم انه لا يمكن بعد ذلك أن تزعجنا هذه النزوات الجسدية وبهذا تدخل الكبرياء سراً إلى قلوبنا كما لو كنا قد تخلصنا نهائيا من فساد الجسم . تأتى الشهوة عند ذلك فتعيدنا إلى الإتضاع وتقف فى طريقنا وتذكرنا بأشواكها أننا لسنا إلا بشر .

لانه ولو أننا نسقط عادة دون تفكير كثير فى أنواع أخرى من الخطايا أكثر ضرراً ولا نستحى بسهولة من ارتكابها . إلا انه فى هذه الحالة بالذات يدخل التواضع إلى ضميرنا بصفة خاصة وتعود اليه ذكريات الفعالات مضت ويرى أنه قد تنجس عن طريق الميول الطبيعية . ولم يكن يحس بهذا الشعور عندما كان أكثر نجاسة عن طريق الخطايا الروحيه . وبهذا يعود الضمير فى الحال إلى العلاج السابق للتكامل ويشعر بالتحـــذير من أنه لا يجب أن يعتمد على

ما أحرزه من نقاوة فى الماضى إذ أنه يرى أن هذه النقاوة قد ضاعت بسبب ابتعاده قليلا عن الرب . وكذلك يرى أنه لا يستطيع أن يحصل على منحة الطهـــارة إلا بنعمة الله وحدها حيث أن التجربة تعلمنا بوسيلة أو بأخرى اننا إذا كنا حريصين على أن نصل إلى كمال القلب الثابت . علينا أن نحـــاول على الدوام أن نحصل على فضيلة الإتضاع .

الفصل السادس عشر

فى شهوات الجسد التى لا يصحبها انسحاق الروح تسقط فى شرور أكثر شدة

وتعزيزاً للقول بأن الكبرياء التى تأتى عن طريق الطهارة تكون أكثر خطورة من جميع الخطايا والشرور وانها تحرمنا من ثواب أية مرتبة نصل اليها من مراتب العفة الكاملة . نستشهد بالقوات الملائكية التى أوردنا ذكرها من قبل والتى طرحت من مرتبتها العليا السمائية إلى الهلاك الدائم لمجرد الكبرياء حيث أنها لم تكن لها شهوات جسدية مثلنا .

ولهذا فاننا كنا نصبح فاترين تماما وبلا أمل لعدم وجود الإحساس بالإهمال بالطبيعة فى أجسامنا وعقولنا . وكذلك ما كنا نحاول جاهدين أن نصل إلى بهاء الكمال أو حتى ما كنا نحتفظ بالاعتدال والتقشف . لولا ما ينشأ فينا من ثورة الجسد التى تجلب لنا التواضع وتعوقنا وتجعلنا مشتاقين إلى تطهير أنفسنا من الخطايا الروحية .

الفصل السابع عشر

توضيح الفتور الروحى

ضرب القديس مثلا فقال :

لهذا السبب المتقدم ذكره نلاحظ غالبا حالة فتور العقل فى الخصيان لانهم إذ أصبحوا غير مقيدين بحاجات الجسد فإنهم يتوهمون أنهم ليسوا فى حاجة إلى التقشف أو انسحاق القلب وهم يتكاسلون لخلوهم من القلق ولا يبذلون أى جهد للحصول على كمال القلب أو التخلص من الخطايا الروحية .

ويصبح هذا الوضع الذى هو نتيجة لحالتهم الجسدية أمراً طبيعيا

وهى حالة أكثر سوءا . لان الذى ينتقل من حالة البرودة إلى حالة الفتور تنطبق عليه كلمات الرب أنه مكروه كراهية أكثر من غيره .

الفصل الثامن عشر

مناقشة عن النضال

سأل جرمانس : يبدو لنا أنك بينت لنا بغاية الوضوح قيمة النضال الذى يقوم بين الجسد والروح حتى أننا نعتقد أننا قد أدركناه بطريقة ما . ولذلك نود أن تشرح لنا بنفس الطريقة الفرق بين الرجل الشهوانى والرجل الطبيعى أو كيف يمكن أن يكون الرجل الطبيعى أسوأ من الرجل الشهوانى .

الفصل التاسع عشر

توجيه النضال

أجاب الأنبا دانيال بما يلى :

طبقا لما جاء فى أقوال الكتاب المقدس توجد ثلاثة (١) أنواع من النفوس:

النوع الأول : الجسدانى

النوع الثانى : الطبيعى

النوع الثالث : الروحى

ويصفها الرسول هكذا فيقول عن الشهوانى : « سقيتكم لبنا لاطعاما لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون بل الآن أيضا لا تستطيعون لأنكم بعد جسديون فإنه إذ فيكم حسد وخصام وانشقاق ألستم جسديين » (٢)

أما عن النوع الطبيعى فيقول « لكن الإنسان الطبيعى لا يقبل ما لروح الله لأن عنده جهالة » « وأما عن الروحى فيقول « وأما الروحى فيحكم فى كل شىء وهو لا يحكم فيه من أحد » (٣) ثم يقول « فاصلحوا انتم الروحانيين مثل هذا

(١) ويمكن جعلها أربعة أنواع إذا أضيف النوع النفسانى «نفسانيون لا روح لهم» . وهو أقرب إلى النوع الاول

(٢) ١ كو ٣ : ٢ و ٣ (٣) ١ كو ٢ : ١٤ و ١٥

بروح الوداعة » (١)

لذلك فانه ولو أننا عند توحدنا أصبحنا غير جسدانيين بمعنى أننا بدأنا نعزل أنفسنا عن الاتصال بأهل العالم ونقطع صلتنا بالفساد الظاهر للجسم الا أنه يجب أن نكون حريصين وأن نجتهد بكل قوانا أن نصل فى الحال إلى حالة روحية لئلا نخدع نفوسنا - لأننا فيما يختص بالانسان الظاهر نبدو كاننا تركنا العالم وتخلصنا من نجاسة الزنى الجسدى ونتوهم أننا بهذا قد بلغنا ذروة الكمال - وعند ذلك نصبح مهملين وغير مكترثين بشأن تطهير ذواتنا من الميول الأخرى ولذلك إذ نظل فى هذا الموقف نعجز عن الوصول إلى مرحلة التقدم الروحى إما لاننا نظن أنه يكفى لبلوغنا الكمال أن نبدو أننا قد عزلنا أنفسنا فيما يختص بالانسان الخارجى من الاتصال بهذا العالم ومن مسراته أو لأننا تخلصنا من الفساد والصلة الجسدية ، وهكذا نجد أنفسنا فى حالة الفتور التى تعتبر أسوأ الحالات ثم نكتشف أن الرب قد تقيأنا من فمه طبقا لكلماته هذه « ليتك كنت باردا أو حارا - أنا

(١) غلا ٦ : ١

مزمع أن انقيأك من فمي ».

ولا يعلن الرب دون مبرر قوى أن أولئك الذين سبق فقبلهم فى أحشاء محبته والذين أصبحوا فاترين بشكل مخجل سينبذون ويحرمون من عطفه - كما لو كانوا قد أصبحوا له طعاما مقذيا تم فضلوا أن ينزعوا من قلبه وبهذا يصبحون أسوأ بكثير من أولئك الذين لم يجدوا طريقهم مطلقا كغذاء إلى فم الرب - كما تحول وجوهنا باشمئزاز من الطعام الذى تجبرنا حالة القيء أن نتقيأه ، لأن الطعام البارد إذا دخل الفم يصبح دائما يكون مقبولا ومفيداً — لكن الطعام إذا لفظ مرة لأنه فاتر فان الانسان لا يمكن ان يلمسه بشفتيه ، لابل لايمكن أن ينظر اليه من بعد دون أن يشعر بأشد حالات الاشمئزاز .

يصح القول إذن ان الشخص الفاتر أسوأ من غيره لأن الرجل الجسدانى أى رجل العالم وغير المؤمن يمكن رده إلى الايمان وإلى أعلى درجات الكمال بسهولة أكثر من رد من أعلن عنه أنه راهب لكنه لم يبدأ فى السير فى طريق الكمال كما تقضى بذلك تعاليم الرهبنة ، ولذلك فانه قد ارتد نهائيا بعيداً عن نار الغيرة الروحية - لأن الأول

قد انسحقت نفسه بخطايا الجسد وهو يعترف بنجاسته وبتأنيب ضميره ويندفع من الفساد الجسمانى إلى ينبوع التطهير الحقيقى وأعلى درجات الكمال - ونتيجة لهذا فانه يشتعل بنار الروح ويمضى باستعداد أكبر نحو الكمال .

كذلك فان الانسان متى بدأ بداية فاترة كما ذكرنا وأخذ يسيء إلى اسم الرهبان(١) ، ولا يتقدم فى طريق الرهبنة بتواضع وحرارة كما يجب - متى أصيب بهذا المرض التعس وأرهقت أعصابه نتيجة لهذا المرض ، فانه لا يستطيع بعد ذلك أن يميز ما هو كامل أو يتعلم من نصح الآخرين لأنه يقول فى قلبه ما يخبرنا به الرب « لأنى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة لى إلى شيء » ، ولهذا ينطبق عليه القول الآتى « لكنك شقى وبائس وفقير وأعمى وعريان » (٢) وهو بهذا يكون فى حالة أكثر سوءاً من حالة رجل العالم لأنه ليست لديه أية فكرة عن أنه بائس أو أعمى أو عريان أو أنه فى حاجة إلى التطهير

(١) تعاليم هذا القديس هى لجميع الناس لأننا جميعا مطالبون بالكمال
(٢) رؤ ٣ : ١٧

أو التوجيه أو التعليم من أى أحد ولهـــذا فإنه لا يتلقى أية نصيحة سليمة لأنه لا يدرك أنه مرتبط باسم الرهبان وأنه قد هبـــط من مرتبته فى نظر الجميع - هذا وإذا كان النـــاس يعتقدون أنه قديس ويعتبرونه عادم الله فإنه سيدان فيما بعد دينونة أكبر ويعاقب عقابا أشد .

وعلى أى حال من الأحوال لماذا نطيل الحديث عن هـــذه الأمور التى اكتشفناها جيداً وأثبتناها بالخـــبرة العملية ؟ فكثيراً ما رأينا أولئك الذين كانوا باردين وجسدانيين أى قوما دنيويين وغير مؤمنين وقد أصبحوا حارين فى الروح ، أما الفـــاترون فلم نر أحدا منهم قط يبلغ حرارة الروح .

وهؤلاء أيضا نقرأ عنهم فى النبوات انهم مكروهون من الرب حتى أن الناس الروحانيين والعلماء يطالبون بالامتناع عن تحذيرهم وتعليمهم والا يلقوا بذور كلمة الحياة فى أرض جدباء غير مثمرة لتخنقها الأشواك الضارة وأن يزرعوا بدلا من هذا الأرض الطيبة أى أنهم يجب أن يوجهوا كل عنايتهم وتعليمهم وغـــيرتهم لكلمة الحياة - للكافرين ورجال العالم كما نقرأ فى الكتب : « لأنه هكذا

قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم احرثوا لأنفسكم حرثا ولا تزرعوا فى الأشواك (١).

الفصل العشرون

عن اولئك الذين يعتزلون العالم

بطريقة غـــير سليمة

وأخيراً أقول وأنا أشعر بالخجل أن عدداً كبيراً من الناس قد اعتزلوا العالم دون أن يغيروا شيئا من خطاياهم وعاداتهم السابقة لكنهم غيروا فقط مظهر حياتهم وملابسهم الدنيوية لأنهم شديدوا الحرص على اقتناء ثروة لم تكن لديهم من قبل أو أنهم لم يتنازلوا عن الثروة التى كانوا يمتلكونها . أو - مما يدعو إلى مزيد الحزن - أنهم فعـــلا يعملون جاهدين على زيادة هذه الثروة ويبررون عملهم هذا بقولهم بأنه من الصواب أن يعولوا بها أقاربهم أو الاخوة أو أنهم يكنزونها بحجة اقامة مجامع يزعمون انهم يستطيعون ان يكونوا رؤساء عليها :

(١) أر ٤ : ٣

لكنهم لو كانوا يبحثون باخلاص عن طريق الكمال لكانوا - بدلا من هذا - يحاولون بكل قواهم أن يجردوا انفسهم ليس فقط من ثروتهم لكن أيضا من كل ميولهم السابقة وان يضعوا انفسهم كلية ودون تحفظ تحت ارشاد الآباء الكبار حتى لا يثقلوا على انفسهم بواجبات الاهتمام بغيرهم او بأنفسهم .

لكن على العكس نجد انهم بينما هم يحرصون على ان يكونوا رؤساء على الاخوة فهم انفسهم لا يخضعون للآباء الكبار - ويبدأون بالكبرياء إذ انهم بينما يكونون على استعداد تام لتعليم الآخرين لا يكلفون انفسهم عناء التعلم او ممارسة الفضائل التى يعلمونها للآخرين . ولذلك فمن المؤكد انهم سيصبحون فى النهاية كما قال السيد « عميان قادة عميان وان كان اعمى يقود اعمى يسقطان كلاهما فى حفرة (١)

وهذه الكبرياء ولو انها من نوع واحد الا ان لها شكلا مزدوجا الشكل الأول يتخذ على الدوام مظهر الجد والاتزان والشكل الثانى

(١) مت ١٥ : ١٤

ينفجر فى حرية مطلقة بالقهقهة والضحك بما يتنافى مع الوقار - الأول يلذ له الصمت والثانى يصعب عليه الصمت ولا يتورع عن التحدث فى مواضيع غير لائقة وسخيفة بينما يخجل من ان يظن انه اقل علما من الآخرين - الأول بسبب الكبرياء يبحث عن الوظيفة الكهنوتية والثانى يحتقرها لأنه يتصور انها غير ملائمة أو انها لا تتناسب مع مركزه السابق وحياته وعلو شأنه - ولكل منا ان يفكر ويقرر اى هذين الشكلين اكثر سوءا من الآخر .

على اى حال فإن العصيان يعتبر عصيانا إذا عصى الانسان اوامر الآباء الكبار سواء اكان ذلك للغيرة فى العمل اوحب الراحة - ومن الأمور الضارة كسر نواميس الدير من اجل النوم او من اجل اليقظة ونفس الشىء يحدث إذا خالفنا اوامر رئيس الدير للقراءة أو للنوم وليس هنالك خلاف فى الحافز للكبرياء إذا اهملت احد الاخوة بسبب صيامك او بسبب افطارك - الا ان فى حالة تلك الأخطاء التى تتنكر فى ثوب الفضيلة وفى شكل الروحيات انها تكون اسوأ واقل قابلية للعلاج من الأخطاء التى تبدو صريحة وتنتج عن الشهوات الجسدية لان هذه الأخيرة واضحة تماما ويمكن تشخيصها وعلاجها

بينما الاولى لانها متشحة برداء الفضيلة تبقى بدون عـــلاج وتسبب سقوط ضحاياها فى حالة سيئة أكثر خطورة.

الفصل الحادى والعشرون

عقليـــة حب الـــثروة

ما أتعس أولئك الذين بعد ان ازدروا
بالأمور الكبيرة يشغلون انفسهم بالأمور التافهة

ما اكثر سخف ما نراه من بعض الناس بعـــد تنسكهم وتركهم املاكهم وثرواتهم الطائلة وخدمة العالم وتوحـــدهم فى الاديرة - لا يزالون يهتمون كثيرا بتلك الاشياء التى لا يمكن تركها نهائيا والتى لا غنى لنا عنها فى هذه الحياة ولو انها من الامور التافهة - حتى يبدو انشغالهم بهذه التوافه أشد من حبهم لكل مقتنياتهم.

وبالتأكيد ان يفيدهم كثيرا ان يتركوا ثروات وممتلكات اكبر إذا كان كل ما فعلوه هو نقل ميولهم إلى اشياء صغيرة وتافهة - لان خطيئة الحسد والبخل التى لم يرتكبوها بشأن الاشياء الثمينة قد احتفظوا بها فيما يختص بأمور اكثر شيوعا وبذلك يظهرون انهم لم يتخلصوا من شراهتهم السابقة لكنهم قد غيروا موضوع الشراهة فقط.

لانهم إذا كانوا حريصين اكثر مما يجب على ما يملكونه من حصير وسلال واغطية وكتب وغيرها من مثل هذه الامور التافهة فإن نفس العاطفة تتحكم فيهم وتأسرهم كما فعلت من قبل - وهم فعلا يحرسونها ويدافعون عن حقوقهم بشأنها بغيرة شديدة لدرجة انهم يغضبون من اخوتهم بسببها وما هو اسوأ من هذا انهم لا يخجلون من التشاجر من اجلها.

وهم إذ انهم لا يزالون متعبين من الآثار السيئة لغيرتهم الماضية لا يكتفون بامتلاك تلك الاشياء التى تدعو الضرورة الراهب إلى امتلاكها لكنهم هنا ايضا يظهرون شراهة قلوبهم بمحاولتهم امتلاك اشياء افضل من تلك التى يمتلكها غيرهم - او ربما تجاوزوا كل الحدود الواجبة وحاولوا امتلاك الاشياء العامة المفروض ان تكون لجميع الاخوة على السواء لانفسهم وحدهم - كما لو كان اختلاف المعادن وليست صفة الغيرة هو كل ما يهم فى الامر، وكما لو كان من الخطأ ان يغضب الانسان بشأن المسائل الكبيرة بينما يمكن ان يغضب بشأن الامور التافهة ويعتبر هذا عملا بريئا - وكما لو لم نكن قد تنازلنا عن كل ممتلكاتنا الثمينة لنتعلم الا نهتم مطلقا

بالأمور التافهة - لأنه ما هو الفرق بين غيرتنا بسبب الأمور الفخمة وغيرتنا بسبب الأمور التافهة إلا إذا اعتبرنا هذا الشخص الذى ترك الأمور العظيمة وفى الوقت ذاته استعبد ذاته للأمور الصغيرة شخصا أسوأ من غيره ، ولهذا فان هذا النوع من اعتزال العالم لا يصل بنا إلى كمال القلب لأنه ولو أنه يؤدى بنا إلى حالة الفقر إلا أنه يجعلنا نحتفظ بعقلية حب الثروة .